صور من القاهرة المجهولة

على ضفاف النيل . . .

بقلم الأستاذ محمد عبد الكريم

... ... ومالك أيها الأخ تجرد على القاهرة حملتك وتطلع علينا بين الفينة والفينة بصور غريبة لحاضرة مصر ، تبدى مساوئها وتخفى محاسنها ، تشوه جمالها وتظهرها فى غير ثوبها ، فهل لك أن ترجع البصر لتصدقنا الخبر وترينا القاهرة فى مبانيها المشيدة ، وطرقها الممهدة وميادينها المزدانة ، و بساتينها الفينانة ..... تخرج بنا إلى ظاهر المدينة ليتكشف أمام ناظريك ما خفى من أمرها عليك وترى القاهرة فى ثوبها النظيف ثم تقدم إلى قارئك صورة جميلة لحاضرة مصر الجميلة ، عروس الشرق تختال على ضفاف النيل ...“

قارئ

نبيك يا صاح . . .

ومالى لا أدع الأزقة والحارات ، والمباءات والبؤرات وأصحبك فى جولة ترتاح إليها نفسك وتقر بها عينك ترى القاهرة الجميلة ... ... تراها كما تهوى عروس الشرق، تختال على ضفاف النيل .....

إذا فتعالى معى إلى الشاطئ نجتاز جسر قصر النيل فاذا بلغت متنزهات النهر فقف بنا هنيهة بين المروج والرياض وتأمل النجم الزاهرات والخمائل الناضرات.ودعنا بعدها نتنقل بين البستان الأندلسى والروض الفرعونى لتشهد صورة حية لمجد مصر الغابر ، مصر العربية ومصر الفرعونية ثم ارسل الطرف إلى النيل السعيد ترى غديرا يترقرق الناظرين وجدولا يتهادى بالمحبين ، ونخيلا يصول بوماحه ، وورودا يشهر على الدانى سلاحه ، فإذا لمست أطراف البساط ، واجهت عمارات شاهقات ، سمت سمو ساكنيها وعلت علو أهليها حتى إذا بلغت جسر بولاق رأيتك تحرم النيل ومصاحبته ذلك بأن الشاطئ لم يعد حقا مشاعا تتسير أنت وغيرك فيه فقد اشتراه الاغنياء ... نعم اشتروا شاطئ النيل فى حى الزمالك وفى أجمل بقعة فى القاهرة اشتروه بالمال وشدوا عليه قصورا منيفة ، قصورا تطل النعمة من شرفاتها ويبين الترف فى جباتها ، وحذار أن تتساءل كيف ساغ لهؤلاء أن يحتكروا لأنفسهم

ولذويهم حق الشعب فى مشهد نهره وهواء نيله فكلهم كبار وذوو بأس وسلطان ليس لك ياصاحبى إلا أن تعود من حيث اتيت وأن تنفذ من المخرج الوحيد الذى أمامك وهو الجسر الذى يوصلك بولاق ...

عود إلى بولاق ! !

يؤسفنى يارفيق أن أراك معى ثانية حيث لا تريد، وأن أنحدريك من فردوس الجزيرة إلى بولاق الحقيرة ، ولكن ما حيلتى وقد سألتنى أن أجوب بك الشاطىء لأجلو لك القاهرة عروس الشرق تختال على ضفاف النيل ...

نحن فى بولاق والنيل محجوب بتلك المصانع المتراصة . هذه ميناء الشحن وذاك مرسى شركة النقل النيلية وتلك مطبعة الأهرام فالمطبعة الأميرية تجاورها مخازن البوليس فمصانع كوك فورش الحكومة ثم مصلحة الركائب الملكية فمدرسة مصر الصناعية ...

ترى كيف حجبت بولاق عن النهر وهى أحوج الأحياء إلى النيل وشاطئه النضير . وما لأهليها ينعمون بما ينعم به أثرياء الزمالك وسراة مدينة الحدائق ، لقد صفت المصانع لساكنى بولاق على الشاطىء صفا فتعوض القوم عن نسيم النهر دخانا تنفثه المداخن وعن هدوء النيل وسكونه صخبا دائما من عجيج الآلات ودقات المطارق .

فاذا تابعت بعد هذا سيرك فأنت فى حى فايد أو حوش فايد حى يقوم على رقعة واسعة وقفها ثرى تحمل اسمه واستأجرها الأهلون بطريقة الحكر وأقاموا عليها مساكنهم المتواضعة .

وحوش فايد مشهور بشدة مراس سكانه والمسوته شهرة ذائعة فى تدبير المشاجرات ولا يفوقهن من أهل بولاق فى هذا المضمار إلا نساء حى الحمره اللواتى بلغ بهن اتقان هذا الفن أن غدون من محترفاته وأصبحن يستأجرن لمصاربة النساء والرجال نكاية بهم وانتقاما منهم.

إنى لأشفق عليك وعلى نفسى أن تجازف بالسير فى ممرات هذا الحى وطرقاته خشية أذى يصيبنا أو شرا يلحق بنا فاذا اكتفينا بعرض واجهته حتى نهايتها فنحن فى حى الرمل أو الرملة.

ورمل بولاق كرمل الاسكندرية كلاهما على الشاطىء هذا على النيل وذاك يطل على البحر وقد تعوضت بولاق عن الأكشاك والكازينات قمائن لحرق الطوب ومخازن للشركات. وإذا كانت الاسكندرية تشرف على مجراها بالشاطبى والإبراهيمية واسبورتنج وستانلى وجليم فرمل بولاق غنى بأحيائه زاخر بنزلائه وحسبنا أن نواصل التجوال على هذا الشاطىء البديع... عسى أن نحقق بغيتنا ونبلغ غايتنا فنرى جانبا كبيرا من حاضرة مصر عروس الشرق تختال على ضفاف النيل ! ! ..

بين عشش كابش :

نحن الساعة فى حى الرمـلة فى طريقنا إلى جسر امبابه ومخازن الشركات والسكة الحديد تحف جانبى الطريق فاذا انتهينا منها رأينا فضاء يتكشف عن أرض دكناء تتأملها فتبينهـا حيا صغيرا منخفضا عن مستوى الطريق ، هى أكواخ من اللبن متراصة متراحمة والذى تحار وأحار معك فيـه أنك لا تكاد تبصر لهذه الأكواخ مداخل أو طرقات هى كتلة كبيرة من الطين قائمة على رقعة فسيحة . هذه يا رفيق عشش كابش أفقر مساكن العاصمة طرا وأتعسها حظا يأوى إليها فئـة من فقراء أبنـاء الصعيد الذين لجأوا إلى العاصمة طلبا للرزق وألقوا رواسيهم على ضفة بولاق حيث أقاموا مستعمرة عمرها الضيق وسكنها الإملاق — وماظنك بقوم لايجدون ما يسد أودهم فانطلقوا فى المدينة يجمعون القمامة أو ينقلون التراب أو يحفرون الأرض أو يحرقون لبنات الطين .

ولو أن عملهم دائم مستمر لهان أمرهم ولكنهم شأن ذوى المهن الصغيرة فى هذا البلد أن وفقوا الى العمل يوما أقعدتهم البطالة أياما ، لذلك لانعجب إذ نراهم يطلقون أبناءهم وبناتهم فى المدينة يسعون فى مناكبها ويأكلون من الرزق حلالا كان سبيله أم حراما ذلك بأن أكثر المشردين من جامعى أعقاب السجاير والبنات اللواتى يحترفن بيع الياانصيب تلك الحرفة التى لاتلبث أن تودى بهن الى الهاوية ، أكثر هؤلاء من أبناء عشش كابش وما جاورها من مناطق الأحكار القائمة على النيل .

صحة وتنظيم ! ؟ ...

لقد دنونا من الجسر وتكشف أمامنا منظره العظيم ، جسر كبير تكلف مع النفقين القائمين فى مدخله ومخرجه كما علمت أكثر من مليون من الجنيهات وشاطئ يطل على رأس الجزيرة الجميلة وفى نقطة اتصال مصر بصعيدها .

أمام هذا المشهد الذى تلتقى فيه عظمة الصناعة . بجمال الطبيعة ترجع البصر الى ماحولك فيرتد اليك البصر وهو حسير . ذلك بأن الشاطئ حول مدخل الجسر وعلى بعد خطوات منه يزخر بقمائن تحرق الطوب ومصانع تطحن فتاته . ترى الدخان يتصاعد فى كل مكان ويحمـله الريح صوب المساكن — ولعلك تعجب وتتساءل كيف ارتضى القـائمون بالأمر هذه الحال وكيف استساغت وزارة الصحة ومصلحة التنظيم وإدارة الرخص ، كيف استساغت هذه الهيئات السماح لأصحاب هذه القمائن بإقامة مصانعهم وأفرانهم فى مثل هذا المكان ! ؟ ...

على أنى أسألك ياصاحبى أن تهدئ من ثورتك وتخفف من حدتك فقد حصلت لك من المختصين بالأمر على الأجوبة الشافية الكافية . . !

لقد قيل لى إنها مصلحة الخزانة فلما تحريت هذه المصاحة التى هان جوارها تسميم صدور سبعة وثلاثين ألف نفس من ساكنى روض الفرج البلد ومناطق الأحكار فضلا عن تشويه مشهد النيل فى أهم ضفافه وجدت أن الخزانة لاتجبى سوى بضعة عشرات من المنيهات فى كل شهر.

وقال قائل منهم لابل مبدأ تشجيع الصناعة ! ! ولست أدرى ما يضير صناعة الطوب ، وصناعة اذا ما أقيمت هذه المصانع خارج العاصمة وفى منطقة نائية عن المساكن بعيدة عن العمران بعد أن تنزع ملكية الأرض ويعوض عنها أصحابها بمكان آخر.

وقال لى ثالث أكثر صراحة : هذه حال وجدناها من القدم وليس لنا أن نغيرها ، ما أصدق صاحبنا ولكن ما أشبهنا فى هذا بقول الكافرين حين أجابوا بشيرهم إلى الهدى " إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون " .

فى الروض الزاهر :

ليس فى مقدورك ياصاحبى ولا فى مقدورى أن أتابع السير على الشاطئ وقد سدت محارق الطوب منافذه فليس أمامنا إلا الحى المجاور نجوب نواحيه — جوارنا الساعة روض الفرج البلد . حى كبير يضم أربعة وعشرين ألف ساكن كلهم من صغار العمال وأكثرهم من أبناء المنوفية وهم فى مهنهم مرتبون كما ترى : ضاربو الطوب وحارقوه ، كناسون وعمال نظافة ، باعة جائلون ، حلاقون ثابتون وجائلون ، وهناك غير ذلك بعض صغار التجار وعمال السكة الحديد يقيمون فى المنازل القائمة بواجهة الحى .

وليس للروض من اسمه نصيب وليس العيب فى هذا عيب الأهلين إنما نعود باللوم فيما أصابهم على مصالح الحكومة فالتنظيم لا أثر له فى تلك الحوارى الضيقة التى لاتصل الشمس الى بيوتها ولا يبلغ منافذها الهواء وليس أدل على إهمال تنظيم الحى من أن الكثير من حاراته مسدود فى نهايته فى موضع لا يحتاج إيصاله الى الطريق العام غير نزع ملكية بيت أو بيتين — والإنارة وإن كانت فى المدينة مقيدة إلا أنها منعدمة فى الحى وقد علمت أن الأهلين كانوا قد نظموا بينهم رابطة تقوم بالانارة وتعد لوحات الطرق لقاء جعل صغير يدفعه الملاك الا أن الرابطة قد انحلت ولم يبق ثمة من يعنى بمصالح الحى .

وفى الحى مدرسة الزامية واحدة وحنفية مجانية واحدة ولهذا يضطر الأهلون وكلهم فقراء الى جلب مائهم من النيل بالجرات وفى ذلك مافيه من خطر على الصحة وتعريض الناس للاصابة بالأمراض الطفيلية ، مع أن إعداد بضع حنفيات لايتكلف سوى مبلغ يسير .

فى حكر خلف :

فى الطريق الى ساحل روض الفرج يرى السائر على يمينه منطقة كبيرة تقابل الباب الخلفى لمدرسة شبرا الثانوية منطقة تميزها بانخفاضها عن مستوى الطريق وتعرفها بسوء تنظيمها وبساطة مساكنها ، هذه أرض خلف أو حكر خلف .

كانت هذه الأرض إلى إحدى عشرة سنة خلت حقولا نضيرة يتوسطها ملهى صيد الحمام وطالما قضينا إبان دراستنا بمدرسة فاروق الثانوية أوقات هنيئة فهناك على ضفة النيل فى ظلال التوت والجميز كنا نمضى ساعات نشغل فيها بصيد السمك أو بمص القصب أو أكل الخص الذى نشتريه من الحقل ونغسله بماء الساقية ، تبدلت اليوم هذه الحال وغدا ذلك الشاطىء الجميل مباءة قذرة اكتظت فى أثر نواحيها بالعشش والأكواخ ، ذلك بأن ملاك هذه الأرض الموقوفة أرادوا استغلالها بما يرفى كسبهم ويزيد من ريع ملكهم . فعرضوها للبناء بطريقة الحكر وسرعان ما وجدوا الراغبين الذين ملأوا الأرض بأكواخهم وبيوتهم الحقيرة هبطوا الى هذه الحقول كما تهبط أرجل الجراد فتذهب بالأخضر واليابس ، ولكن ماشأن المالك فى هذا وغايته الكسب ، فصاحب البناء يدفع لإدارة الوقف حكرا يتراوح بين ثمانية وخمسة عشر مليما للمتر الواحد فى الشهر وهكذا أصبح الفدان الذى كان يؤجر للزراعة بخمسة عشر أو بعشرين جنيها أصبح يدر اليوم بعد إشغاله بالبناء مائة جنيه أو يزيد .

صور من حياة الأهلين :

رأيت ياقارئى فيما أسلفت أن الشاطئ حافل بجحافل الفقراء زاخر بجيوش البائسين وإذا حل الفقر والعوز فى قرية حل بها الشر وآوى اليها العدوان ، فلا عجب إذا رأينا الإجرام يمسكن تلك البقاع وحسبك أن تعلم أن مناطق الاحكار الممتدة من حوش قايد الى المبيضة هى المحلة الثانية للمجرمين فى العاصمة ولا يسبقها فى هذا سوى دائرة الترجمان وسوق العصر فى بولاق .

فبين هؤلاء العمال والباعة الذين رأوا فى تملك البيوت فى هذه المنطقة بطريقة الحكر ما يوفر لهم إيجار المسكن ويضفى عليهم صفة الملاك ، يقيم فريق من اللصوص الذين وجدوا فى مجاورة هذه المنطقة لروض الفرج وشبرا ما يدنيهم من أهدافهم وقد اختص أكثرهم فى التسلل الى المنازل وسرقة النقود والحلى والملابس ومنهم من يقتصر عمله على اختطاف الأكمة والسجاجيد المبسوطة على الشرفات وفى الأدوار القليلة الارتفاع يجذبون ما يريدون بعصى مسمرة الأطراف .

ويمتاز حكر خلف بأنه وكر الجانب الأكبر من طائفة الأغجار الذين يتزحون من أطراف المنوفية ويطلقون نساءهم فى الشوارع مؤشومات الذقون محليات الأنوف بالأقراط يتدين فى كل مكان "بين زين ونشوف البخت" "ندج ونطاهر" "الشيخ فى البيت مليح" ولو أن عملهن قاصر على طهارة البنات بكشف الطبع أو الرقص فى الطرقات لقلنا كسب لاتثريب عليه فيه ولكن أكثرهن يتخذن السرقة على هذه الأعمال. ولحن فى ذلك سبلا أتقنها ويرعن فيها. فمنهن من تخرج وزوجها السرقة بالطريقة الأمريكانية المعروفة ومنهن من تتندس فى الأماكن المكتظة بالسيدات كالأضرحة والمستشفيات وتسرق الحلى من أساور وعقود ويتظاهر بعض نساء الأغجار ببيع الأقمشة فى البيوت ويعمدن الى بسط الثوب أمام الشارية بحالة تحجب ما فى البيت عن عين صاحبته فى وقت تسلل فيه إحداهن الى حيث توجد النقود أو المصوغات.

الحكر موطن كل قبيح :

الحكر كما لا يخفى عليك هو تأجير الأرض الموقوفة الى من يشغلها بالبناء نظير جعل يدفعه صاحب البناء الى الأوقاف المالكة للأرض.

ولما كان صاحب البيت فى هذه الحالة لا يملك غير بنائه وإقامته بالأرض مؤقتة ورهينة برغبة الوقف فهو لا يعنى عادة باتقان البناء لذلك لا تعجب اذ نرى أقبح المبانى وأحقرها مقامة فى مناطق الأحكار.

والحكر كما يشهد صديقنا المحامى ذلك وهو كمدير لادارة الأوقاف أعرف الناس به هو أسوأ أنواع الاستغلال ونحن لا نعدو سدرة الحق اذا قلنا إن الحكر أكبر ما يشين صحة البلاد فما من حى تلمس فيه روضى التنظيم وانعدام أسباب الصحة الا وكان حكرا، ولا يرجى ولن يرجى لهذه العاصمة إصلاحا أو تجميلا مادام الحكر قائما وما دام المشرفون على الأوقاف يرون فى تأجير الأرض لمن يشغلها بالبناء موردا أفضل من زراعتها.

بلد العجائب :

يقول الفربيون عن مصر إنها بلد العجائب وليست عجائبها فيما حوت من أهرام وآثار ونصب وأحجار إنما العجيب حقا هذا التناقض والتباين الذى تلمسه فى كل شىء لدينا فى أرياننا، فى طراز مساكننا، فى أحوال طبقاتنا المعيشية والاجتماعية وليس أدل على ذلك من تلك الصور المشوهة التى تظهر بها مدن القطر عامة وعاصمة البلاد بوجه خاص.

في الوقت الذي يعاني فيه كثيرا ما فرضته الطبيعة على سكانها من جو رديء وبيئة غير صالحة ليعيموا مدانا في أحضان البحار [1] أو في لجج المياه وأواسط الخلجان [2] أو عند مواضع الزلزال وتحت هم البركان [3] ترى بلادنا كبلادنا حبانا الله بخير ما يحبو به أمة. جباها بديع ونور ساطع وسماء صافية لأديم ونهر ميمون كريم. فترانا نشعر هذا الجمال حسبك أن تتأمل ذلك الوجه الذي تكشف لك عنابه بترى ما فعلناه بحاضرة البلاد فقد أغفلنا أمرها وتركناها شاهبة على وأبينا إلا أن نتلف بأيدينا ما أسبغته عليها الطبيعة من نعم فصففنا على ليل أمرها المساكن والمقاهي ومهدنا هواءها الطلق سدا من المصانع لنسده بما تقذفه المداخن وتبعث به حبات الفحم.

بلدية القاهرة :

إن أجمل الوجوه في كل مدن العالم ما قام على ضفاف الأنهار، فعلى ضفتي السين أحيطت باريس بطريق بديع تحف به أجمل المباني وحسبك ما يشاهد المرء عن ميدان الكونكور وحول إلى (Quay D'Orsay) كذلك قامت لندن بمبانيها على ضفاف التايمز فإذا استثنينا الميناء التي خصصت ملاحة بإشراف هيئة المختصة (Port London Authority) نرى باقي المدينة تشرف على النهر أجمل المباني وتلمس آثار تلك الحرية التي أكسبت عاصمة الامبراطورية البريطانية ما جعلها من أعظم مدن العالم.

ذلك بأن الدول الحرية أعطت شئون المدن والمواصم هيئات مطلقة اليد تفرض الضرائب وتسن اللوائح وتعمل للاصلاح ما استطاعت، ففي باريس بلدية وفي لندن مجلس دائم (London County Council) أما مصر فأمر عاصمتها قسمة متنازعة بين التنظيم والصحة والمجاري وغيرها فعدت بارتباطها بالدولاب الحكومي وئيدة المسير بطيئة التقدم.

فإذا أردنا للقاهرة صلاحا فسلم أمرها الى مجلس بلدي تطلق يده في شئونها ويعمل على صلاحها صلاحا يعلي قدرها ويكفل لأكثر من مليون من ساكنيها اقامة طيبة في أحياء نظيفة ومساكن صحية تصلها الشمس وتخالها الهواء وخاصة أن الجانب المهمل في العاصمة هو ما يقوم فيه أحق الطبقات بعنايتها، طبقة العمال والصناع.

وفكرة بلدية القاهرة كما نعلم قديمة وقد فحصت من قبل ومحصت ولم يبق الا الاسراع بتنفيذها.

---

(1) هولندا وتقع نصف أراضيها تحت مستوى البحر.

(2) البندقية وليفربول.

(3) بومبي وهركولانوم.

الداء . . .

نرى مما تقدم أن واجهة العاصمة المطلة على النيل قد أفسدتها أسباب ثلاثة :

الأول — إقامة المصانع على الشاطئ .

الثانى — الترخيص باقامة قمائن حرق الطوب فى مهب الهواء وخاصة جوار جسر امبابه .

الثالث — وهو أهمها : نظام الحكر الذى أوجد فى المناطق الزراعية الناضرة أسوأ المساكن وأحط الأحياء .

والدواء . . .

أما المصانع فليس لنا أن نشير بنقلها إلا بعد أن تنجلى الحرب القائمة وتجد الدولة من المال ما يكفى لتنفيذ هذا المشروع الكبير ، وأما ترخيص باقامة محارق الطوب وقمائنه فهذا ما يجب أن يسارع ولاة الأمور الى منعه حالا فليس من المعقول أو المقبول أن تستمر إدارة الرخص فى التصريح للناس باشغال الشاطئ بمثل هذه المنشآت الضارة كما لا يجوز بحال أن تجدد الرخص الصادرة عند انتهاء أجلها .

ننتقل أخيرا إلى أهم ما فى هذا البحث وهو أمر الحكر ومناطق الأحكار ، وعند لمسألة الحكر حلان : حل عام حاسم وآخر خاص بالأحياء التى عرضنا لها فى هذه العجالة .

أما العلاج الحاسم فهو صدار تشريع يلغى بموجبه نظام الحكر فى المدن الغاء تاما . فلا تصدر مصلحة التنظيم أو المجالس البلدية والمحلية فى غير العاصمة رخصة ما بالبناء ما لم تكن الأرض ملكا حرا لطالب الترخيص دون ذلك أدعى الى اهتمام البانى باتقان بنائه .

أما المناطق القائمة على الشاطئ فمن الميسور الخلاص منها باتفاق يعقد بين مصلحة الأملاك ووزارة الأوقاف لاستبدال هذه الأراضى بما يعادل قيمتها من أراضى الحكومة المستصلحة للزراعة ، وبهذا تستولى الحكومة على مساحات واسعة قيمة دون أن تبذل الخزانة فى ذلك شيئا .

كذلك يمكن للحكومة أن تنزع ملكية العقارات الخاصة بالأهلين فى هذه الجهات لتخليها وتقيم طريق الكورنيش فى المنطقة التى تبدأ من مدرسة الصناعات الميكانيكية حتى ساحل الغلال بروض الفرج .

ولن تصطدم الحكومة فى تحميل الشاطئ بعقبة مالية ، فالأراضى التى تنزع ملكيتها سواء من الأهلين أو ما يؤخذ بطريق البدل من الأوقاف سوف تباع بأثمان عالية ، إذ يمكن

تخطيطها تخطيطا حديثا ليقوم عليها حى راق يماثل فى موقعه حى قصر الدوبارة وجاردن سيتى ، كذلك يمكن إعداد بعض المتنزهات الصغيرة على طول الكورنيش ، تجاه أحيـاء بولاق وروض الفرج وشبرا بدلا من مخازن الشركات والقمائن والأفران .

وبعد . . .

وبعد فقد لبيت يا قارئى العزيز دعوتك ، وأجبت طلبتك ، وإذا رأيت فيما تشهد ما لا يقر به ناظرك أو يرضى خاطرك ، فاعلم أن ذا بعض مايقوم عليـه شعب تحنو عليه وجانب من بنيان وطن تنتسب إليه ، فإن كنت ممن بيدهم أمر أو نهى ، فقوم المعوج بيدك وإلا فقدم ما استطعت من لبنات لاصلاح هـذا البنيان ، واذكر أن نقدا لمـا نحن فيه خير من مديح ترتضيه ، فوالله ماضرنا الا أنا نبذنا الصدق وتجاهلنا الحق ومضينا نطوى الدهر أجيالا بعد أجيال نتغنى بالجمال ونستلهم الاعجاب من وحى الخيال ، ولو أننا عنينا حقا بالاصلاح ونهجنا سبيله القويم ، لحسن حالنا ولشهدنا عاصمـة البلاد كما يود القارئ اللائم نشهدها بحق عروس الشرق تختال على ضفاف النيل ! ... ؟

محمد عبد الكريم